المقال العلمي

تأثير القنوات الفضائية على الثقافة العربية

(رؤية تحليلية)

أ. د. عدلي سيد محمد رضا*

مدخل نظري

أسفرت تكنولوجيا الاتصال وثورة المعلومات عن واقع جديد أصبح يفرض نفسه على عالمنا المعاصر.. ولعل أهم علامات هذا الواقع ومؤشراته هو احتكار الدول الغربية لتكنولوجيا الاتصال، وتحكمها في مصادر الأخبار والمعلومات وحرمان دول العالم النامي منها في ظل تدفق غير متوازن بين دول العالم المختلفة.

ولقد ساعدت تكنولوجيا الاتصال والمعلومات على تمهيد الطريق أمام وسائل الإعلام والثقافة الغربية لاختراق المجتمعات النامية وتهديد هويتها وثقافتها.. لقد أفرزت تكنولوجيا الاتصال الحديثة واقعاً إعلامياً جديداً أدى إلى توفير وإتاحة بدائل ووسائل إعلامية عديدة ومتنوعة.. ولاشك أن هذه الوسائل الجديدة تعكس بيئات ثقافية وحضارية متباينة الأفكار والرؤى. وهي بلا شك تؤثر تأثيراً مباشراً في الذاتية الثقافية للشعوب ومن هنا يكون البحث عن حماية الهوية العربية أمراً ذا أهمية وضرورة.

وتزداد المخاوف يوماً بعد يوم من آثار العولمة الثقافية على الهوية العربية وذلك في ضوء ما يقدم من مضامين مختلفة في الفضائيات العربية والأجنبية، وعلى الشبكة الدولية للمعلومات "الانترنت" ، وما تقدمه الصحافة والسينما، وكذلك ما تعكسه وسائل الإعلام الغربية من صور مشوهة وسلبية عن واقع الإنسان العربي ومجتمعه.. وللأسف فإن بعض الفضائيات العربية سارت على منهج بعض القنوات الفضائية الغربية شكلاً ومضموناً، وجعلت الجماهير العربية تحاكي

* أستاذ الإذاعة والتليفزيون المتفرغ بكلية الإعلام – رئيس قطاع الدراسات الإعلامية بالمجلس الأعلى للجامعات

الأسلوب الغربي، وترويج لأنماط ثقافية يخشى من تأثيراتها السلبية على الهوية العربية.

وتجدر الإشارة إلى المضامين الترفيهية السطحية التي لاقت رواجاً واضحاً واهتماماً متزايداً من المشاهدين العرب، وبصفة خاصة الشباب والمراهقين وخصوصاً ما تعكسه بعض الأغاني المصورة والبرامج من صور مبتذلة وخليعة تقوم على الإثارة. وهذه الأشكال تستهدف شباب أُمتنَا وتحاول طمس هويتهم والعبث بقيم وعادات وتقاليد وثقافة المجتمعات العربية والإسلامية .

إن الأمر جد خطير إذا لم تنتبه وسائل الإعلام ومؤسسات التنشئة الاجتماعية العربية إلى حقيقة ما يدور حولنا من سعي لفرض ثقافة العولمة والتغريب لدى المواطن العربي.

إن المحافظة على الهوية والثقافة العربية لا تعني الانطواء على الذات وإنما تعني التفاعل مع الثقافات الأخرى وأخذ ما يفيد هويتنا وثقافتنا ويدعمها في إطار التفاعل بين الثقافات والحضارات المختلفة.

إن الاعتراف بالآخر والتحاور معه ضرورة تفرضها التطورات العالمية المتلاحقة فلابد من التكامل والتفاعل بين الشعوب والثقافات ولكن لا بد من التمسك والاحتفاظ بهويتنا وحضاراتنا وتراثنا وقيمنا خاصة وأن الحضارة والثقافة العربية لها مكانتها البارزة في صنع تاريخ الإنسانية. ولقد تعلمت أوربا من حضارتنا وعلومنا ولولاها ما كان لها أن تحقق ما وصلت إليه من تقدم كبير.

انطلاقا من هذا تزايدت الدعوات في الآونة الأخيرة لصياغة إستراتيجية إعلامية عربية تقوم على بلورة رؤية واعية تمكن من التعامل مع النظام العالمي الجديد بكل ما يحفل به من متغيرات وما يطرحه من تحديات تلك الرؤية التي تمكن الإعلام العربي من دعم رسالته الأساسية في خدمة الجماهير العربية وقضاياها الأساسية. ولاشك أن هذه الرؤية التي نتطلع إليها يجب أن تستند إلى تطوير الخطاب الإعلامي وآلياته ووسائله بما يساعد على الحفاظ على الهوية الثقافية والحضارية للمجتمع العربي، ومن ثم فإن الاهتمام المتواصل بتوفير بدائل إعلامية

ثرية ومتنوعة يُعد أمراً ضرورياً بشرط أن تطرح هذه البدائل مـــا يتفـــق وميـــول واحتياجات وثقافة الإنسان العربي، وأن تعمل على تنمية ثقته واعتـــزازه بقوميتـــه وهويته.

ومع التطورات التي يشهدها العالم المعاصر، والمحاولات المستمرة التـــي تقوم بها القوى العالمية لعولمة الثقافة والفكر وسائر مكونات المنظومة الحضـــارية تبرز الأدوار الجديدة للإعلام والاتصال، فلم تعد تكنولوجيا الاتصال والمعلومـــات تشغل موقعاً مركزيا فحسب بل بدأت تشغل موقع القلب في إستراتيجية إعادة تنظيم العلاقة بين الدولة والمواطنين، وبين القوى المحلية والعالمية.

لقد أصبح الإعلام يشغل موقعاً أساسياً في الاستراتيجيات والسياسات التي تستهدف تحديث المجتمعات وإعادة بنائها لمواكبة عصر المعلومـــات والتطـــورات العالمية في كافة المجالات.. فالإعلام أصبح محركاً رئيسياً في تشـــكيل منظومـــة العلاقات الدولية سواء على المستوى الرســـمي بـــين الحكومـــات والأنظمـــة، أو المستوى الحضاري بين الثقافات المختلفة.

ولا شك أن تقدم نظم الاتصال في أي مجتمع يعتمد على مدى التقدم الـــذي أحرزه المجتمع في مختلف النواحي الأخرى، ووسائل الإعلام هي انعكاس للـــنظم السائدة في أي دولة سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية ، كما أن النظـــام السياسي للدولة هو الذي يحدد العلاقة بين الأيديولوجية السياســـية وفلســـفة نظـــام الإعلام القائم في المجتمع.

إن عملية بناء المجتمع العصري الذي يعتمد على التنمية الحضارية لابـــد أن تشمل تعلم مهارات جديدة وقبول أفكار جديدة عن طبيعـــة العـــالم والعلاقـــات الإنسانية، وكذلك قبول القيم الجديدة والأفكار المستحدثة وتغير الاتجاهـــات التـــي تستلزمها عملية التحديث.

إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن عملية بناء المجتمعـــات الحديثـــة لا تعنـــي بالنسبة للعالم العربي تبني الثقافة الغربية ولا تعني استيراد التكنولوجيا من الغـــرب ذلك أن التنمية الذاتية للشعوب العربية يجب أن تأخذ في اعتبارهـــا القـــيم الثقافيـــة

الأصيلة والمعاني الخاصة لهذه الشعوب.. ومن ثم فإن تحديث المجتمعات العربية سوق يتحقق في ظل الاحترام المتبادل بين الشعوب على الصعيد الدولي ، ويجب ألا تضيع الذاتية الثقافية للأمم بأي حال من الأحوال على حساب خضوعها للمصالح الأجنبية، بل يجب على الدول النامية أن تسعى من جانبها لإحياء ثقافاتها وتأكيد عزمها على أن يكون لها حق الإسهام الكامل في الحوار بين الثقافات.

ومن الطبيعي أن نؤكد على ضرورة أن تمارس وسائل الإعلام دورها في خدمة البناء الثقافي والاجتماعي للمواطن العربي، ذلك أن الواقع الحالي الذي أفرزته تكنولوجيا الاتصال أتاح وجود المئات من القنوات التليفزيونية والصحف والمواقع على شبكة الانترنت التي ساعدت على تجزئة الجماهير على هذه الوسائل كما أن الكثير منها ساهم بشكل كبير في تسطيح الفكر والثقافة والبناء الاجتماعي للإنسان العربي.. بل إنها بما تقدمه من مضامين هشة قد تُسهِم في ضياع الهوية والقيم العربية على المدى البعيد.

من هنا تبرز أهمية الدور الذي يمكن أن تقوم به وسائل الإعلام في عملية البناء الثقافي والاجتماعي، باعتبارها الوسائل القادرة على تحقيق الدور الهام في التطوير في هذا المجال، وذلك من خلال تطوير القيم السائدة في العلاقات الإنسانية، وكذلك خلق قوة فكرية تعمل على تطوير النماذج الاجتماعية الواقعية، وفقاً لسياسة اجتماعية متكاملة تتخذ أساليب ووسائل هادفة وتساندها تبريرات جماعية ونظريات فلسفية.

لقد ثبت مدى فاعلية وسائل الإعلام في التأثير الواضح على أفكار واتجاهات وسلوك الجماهير، إذا اُستخدِمت استخداماً رشيداً .. ولا يقتصر دور هذه الوسائل على مجرد عرض الآراء والأفكار بل تعداه إلى التأثير في الاتجاهات بتدعيمها أو تبديلها. وهذا بطبيعة الحال أمر يخص طبيعة المضمون من ناحية صياغته وأسلوب إعداده وتقديمه. وفي هذا الصدد فإن وسائل الإعلام يمكنها أن تقوم بالمساهمة في إعادة بناء الأفراد وتنمية تكوينهم باستمرار من خلال نشر وإرساء القيم والأفكار الجديدة والمتجددة التي توائم متطلبات العصر ومسيرة

تقدمه، وتكفل إعادة بناء الأفراد بما يمكنهم من التصدي لمسئوليات عصرهم، وبلوغ مستوى الحياة المحققة لطموحهم المستمر. أمالهم المتجددة ومطالبهم وأهدافهم.

كما يمكن لوسائل الإعلام أن تساهم في تشكيل الملامح الحضارية للمجتمعات العربية من خلال ملاحقة العلم الحديث ونقله في حدود ما يناسب الجماهير وبالشكل والأسلوب الذي يُمَكِن من استيعابها، والوصول بمن يتلقاها إلى مستوى واقع العصر الذي يعيشه فكراً وطموحاً.

إن أخطر ما يرتبط ببناء الإنسان العربي هو التغير في أسلوب الحياة الاجتماعية والقيم الحضارية والثقافية من الاتجاه التقليدي والإيقاع البطيء إلى روح أكثر تقبلاً للتغير وبإيقاع سريع. وهنا يمكن لأجهزة الإعلام أن تساهم في تطوير أنماط السلوك بما يتلاءم مع ظروف الحياة الجديدة، وكذلك تعليم الجماهير أساليب مختلفة في السلوك الفردي والاجتماعي، وتقديم المعلومات التي تساهم في عملية التكيف والتطوير الاجتماعي.. ويتطلب الأمر هنا ضرورة الاستفادة من قدرات وسائل الإعلام في التصدي لمشكلات الإنسان العربي، والمشاركة في تناول قضايا التنمية من خلال بناء فكر وقيم الإنسان الذي يشارك في صنع التطور في المجتمعات العربية.

الفضائيات والواقع العربي : -

1 – ماذا فعلت القنوات الفضائية للثقافة العربي؟.. إن هذا الموضوع يكتسب أهمية كبيرة لكل فئات وقطاعات المجتمع العربي لأن الفضائيات لها تأثيرات كبيرة على كل مناحي الحياة.. ومنذ ظهرت تكنولوجيا الاتصال أتاحت تعددية كبيرة ومتنوعة في مجال القنوات الفضائية فهناك قنوات في مجالات عديدة تشمل الفضائيات الإخبارية والدرامية والرياضية والغنائية والتسويقية والسياحية والدينية وغيرها ولقد أصبح المُشاهد العربي مشتتا بين هذا الكم الهائل من القنوات الفضائية . ولكن على أية حال فإن هذه القنوات استطاعت أن تجتذب الجماهير إليها خاصة وأن هذا الجمهور العربي عاش منذ وجدت

وسائل الإعلام في بلاده وهو يتعامل مع خطاب إعلامي أحادي يعبر عن وجهة نظر الحكومات العربية، ولا يفتح المجال لتعددية الآراء.

2 – لقد أوجد هذا الواقع الجديد للقنوات الفضائية قنوات كثيرة يتعامل معها المواطن العربي مما أدي إلى تقليل اعتماده على القنوات الحكومية، وذلك بسبب تمتع القنوات الخاصة الجديدة بدرجة حرية أكبر في التعبير مما اضطر القنوات الحكومية أن تعطي مساحات أكبر لحرية التعبير لمواجهة المنافسة مع القنوات الأجنبية والخاصة العربية.

3 – مع ازدياد أعداد القنوات الفضائية زادت حدة المنافسة على اجتذاب الجماهير العربية. وفي هذا الإطار نجد بعض القنوات التي تحترم جمهور المشاهدين وتقدم له المضمون المناسب والجاد، وعلى الجانب الآخر نجد القنوات الأخرى التي تقدم الشكل والمضمون المبتذل من أجل اجتذاب الجماهير لمضامين لم يتعود عليها من قبل.

4 – أدى كثرة القنوات الفضائية التي يتعرض لها المواطن العربي إلى تجزئة وتفتيت الجمهور ولم يعد هناك قناة تستحوذ على الجمهور كما كان في الماضي.

5 – في ظل المنافسة بين القنوات الفضائية على اجتذاب الجماهير اندفعت قنوات عربية عديدة إلى تقليد ومحاكاة النموذج الغربي في الإخراج والمضمون اعتقاداً منها أن ذلك هو الطريق الوحيد للنجاح والحصول على إعجاب الجماهير. لقد سعت فضائيات عربية عديدة لترويج أساليب الحياة وأنماط السلوك الغربية والتي لا تنسجم مع قيمنا وتقاليدنا.. للأسف فإن الكثيرين يتصورون أن تقليد الغرب ومحاكاة نمط وأسلوب حياته هو السبيل الوحيد للتطور الإعلامي، وهو الذي سيحافظ على ارتباط الجمهور بهذه القنوات. ومن هنا بدأت تظهر موجة الإثارة والعرى في الغناء العربي، وكذلك موجة الإثارة في الإعلانات التليفزيونية، ويُضاف إلى ذلك تقديم نموذج تغريبي للأسرة في الدراما العربية. وأصبحت النماذج الغربية في الإعلام العربي

تدخل كل البيوت وتؤثر على الشباب والمراهقين تأثيراً سلبياً في أغلب الأحيان.

6 – تأثرت أساليب تقديم البرامج في الفضائيات العربية من قِبل المذيعين فظهرت اللغة المبتذلة واصطناع خفة الدم والتبسط الزائد من أجل اجتذاب الجماهير لتلك البرامج، بل أن المُذيع خرج في كثير من الأحيان على دوره الأساسي في تقديم البرنامج.

7 – في إطار ديمقراطية الاتصال بدأت الفضائيات العربية تقدم حوارات ومناقشات في مجالات عديدة لكن معظم هذه البرامج قدمت نماذج رديئة وبعيدة عن الالتزام بأدب الحوار التليفزيوني. وظهر في هذه البرامج حدة الخلاف والصراخ بدلاً من لغة التحاور والتفاهم وتقبل الرأي الآخر.

8 – أثر الإعلام الفضائي بشكل واسع على الصحف المطبوعة بل أثر أيضا على عادة القراءة، وأصبح الإعلام الترفيهي هو سيد الموقف.. والسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف نحافظ على بناء العقل العربي في ظل هذا الانفجار الفضائي بما يحمي ثقافتنا وهويتنا؟ ورغم كل هذه الظواهر السلبية إلا أنه يمكن القول أن الفضائيات وحدها ليست المسئولة عن حالة الرداءة في الثقافة العربية.. صحيح أن الفضائيات أثرت بشكل كبير على عادات وثقافة الناس ولكن هناك متغيرات أخرى مسئولة عن ذلك مثل برامج التعليم والأسرة ومؤسسات التنشئة الاجتماعية والثقافية وسياسات الحكومات.

9 – لقد ساعدت هذه التشوهات في الثقافة العربية على بروز قيم جديدة تُعلي الأنانية والفردية وهذا لم يكن موجودا في السلوك العربي من قبل فحتى قيمة الشهامة التي عُرفت عند العربي بدأت تتراجع، وبدأت تسود قيم تقوم على التسلق والنفاق بدلاً من الكفاءة والجدية.

كيف نحمي الثقافة العربية ؟

1 – مطالبة الإعلام الفضائي العربي بالاهتمام بالبناء الثقافي للمواطن العربي حيث أصبح ذلك أمراً ضرورياً لمستقبل المجتمع العربي كله.

2 – ضرورة المحافظة على التقاليد والعادات العربية من خلال ما تقدمه القنوات الفضائية مع الانفتاح على الثقافات الأخرى في إطار ما يُعزِز ويُدّعِم الثقافة العربية.

3 – ضرورة إيجاد صناعة إعلامية عربية مشتركة تستند إلى الإمكانات البشرية والمادية والتقنية في العالم العربي، والتقليل من الاعتماد على النموذج الغربي في المضامين المقدمة للجماهير العربية.

4 – أن تقوم السياسات العامة العربية على تنشئة المواطن العربي على الاعتزاز بحضارته وتراثه وتاريخه والانتماء لثقافته بما يُعزز مكانته على المستوى العالمي.

5 – يجب على الدول العربية أن تؤكد على قيم الإنسان العربي في برامج التعليم والخطط الثقافية مع دعم ثقافة الحوار في تنشئة المواطن العربي بدءاً من الأسرة على أن يمتد ذلك إلى كافة مؤسسات المجتمع.

6 – أهمية تدعيم المؤسسات الإعلامية العربية لتصبح كيانات كبيرة وغير مجزأة مع ضرورة توفير بدائل إعلامية تقدم العرب وثقافتهم للمجتمعات الأخرى.

7 – ضرورة دعم ثقافة الحوار في العالم العربي في إطار دعم الممارسة الديمقراطية والمشاركة في صنع المستقبل العربي.

8 – أن تقوم أجهزة الفضائيات العربية بالتعبير عن قضايا ومشكلات الإنسان العربي، مع زيادة مشاركة المواطن العربي في أجهزة إعلامه للتعبير عن رأيه والمشاركة في تطوير المجتمعات العربية من خلال دعم ما يسمى بديمقراطية الاتصال.

9 – وضع مواثيق شرف تنظم عمل الإعلام العربي وخاصة في مجـــال القنـــوات الفضائية على أن تؤكد هذه المواثيق على دعم اللغة العربية والقيم والســـمات الوطنية العربية في المنتج الإعلامي العربي.

10 – ضرورة التطوير المستمر لمنظومة القيم العربية بما يحافظ على الشخصـــية العربية ووضعها في مكانتها التي تليق بها على الساحة العالمية.